الفصل الثالث

بين هموم العمل
وعمادة الدبلوماسيين

يحلّ السفير، وهو نفسه يربط ما حلّه،
مايفعله السفير فيه خير الشعب كله.
تانتراكهيايكا
(من"كتاب المواعظ" الهندي)

كانت الجزيرة العربية محط أنظار الروس منذ زمن، حيث كانت تُنْشَر مقالات حول ما يجري في شبه الجزيرة العربية منذ القرن التاسع عشر في مجلة «سوفريمينِّيك» التي كان يصدرها الشاعر الروسي الكسندر بوشكين، وكان ما يهم روسيا في ذلك الوقت هو حماية مصالح مسلميها الذين يقومون بأداء فريضة الحج في الأراضي المقدسة،إلا أن البداية الحقيقة للعلاقات بين البلدين كانت في منتصف العشرينيات من القرن العشرين.

وقد جاء عمل نذير تيورياقولوف في منصب المندوب المفوض للاتحاد السوفيتي في المرحلة الأولى لنشأة الدبلوماسية السوفيتية، حيث تطلب البدء في انتهاج سياسة خارجية إنشاء أجهزة خاصة تابعة للدولة، وفي هذا الإطار أصدر مؤتمر المجالس الثاني لعموم روسيا مرسوما بإنشاء اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية برئاسة تروتسكي، وكان يتعين على اللجنة تدبير أمورها في ظل عزلة دبلوماسية كاملة، حيث لم تكتف الدول الأوروبية برفض الاعتراف

بالسلطة السوفيتية، وإنما كانت تطلب من روسيا مواصلة الحرب، وكان أمام اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية ثلاث مهام رئيسة هي إنشاء الهيكل الوظيفي لها، والتوصل إلى إيقاف الحرب، والحفاظ على محفوظات (أرشيفات) وزارة الخارجية بروسيا القيصرية والاستفادة منها.

وضمت اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية إدارتين إقليميتين (إدارة الشرق وإدارة الغرب) وعددا من إدارات العمليات والتشغيل (وهي إدارة التأشيرات وإدارة التسليف وإدارة الإعلام وإدارة حملة الحقائب الدبلوماسية وإدارة الاقتصاد والتشريعات ومكتب شؤون أسرى الحرب، ثم بعد ذلك تم إنشاء إدارة المحفوظات (الأرشيف) السياسي وإدارة المراسم وعدد آخر من الأقسام)، وفي مايو من عام ١٩١٨م صدر مرسوم بإلغاء كافة درجات السلك الدبلوماسي (درجة السفير والمبعوث... إلخ) وإدخال درجة مندوب مفوض، ثم تلا هذا المرسوم مرسوم آخر في أكتوبر من عام ١٩١٨م بإنشاء القنصليات، على أن يتم تعيين أعضائها بمعرفة اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية. وكان المندوب المفوض لجمهورية روسيا الاتحادية السوفيتية الاشتراكية يُعد هو الممثل الوحيد لروسيا في الخارج، حيث كان له الحق في القيام بالاتصالات مع حكومات الدولة التي يعمل بها بالنيابة عن الحكومة الروسية، علاوة على ذلك كان من بين اختصاصاته الرقابة على نشاط المؤسسات الأخرى التابعة للدولة السوفيتية داخل أراضي الدول الخارجية.

وبحلول عام ١٩٢٢م كان عدد المندوبين الروس العاملين في الخارج قد وصل إلى أحد عشر مندوبا، وفي بعض الأحوال كانت الحكومة السوفيتية

تعيّن بالعمل القنصلي مواطنين من الدول الكائن بها قنصليتها، فمثلا في إنجلترا تم تعيين الزعيم النقابي المعروف جون ماكلين قنصلا منتدبا، وفي استوكهولم تم تعيين ستريم، وفي الولايات المتحدة الأمريكية جون ريد. وكان يعمل في اللجنة الشعبية في ذلك الوقت كل من تشيتشيرين وليتفينوف وكولونتاي وفوروفسكي وكراسين وراسكولنيكوف وكيرجينتسيف وغيرهم من الدبلوماسيين البارزين. وكانت اللجنة تقوم بممارسة نشاطها على الساحة الدولية في العشرينيات والثلاثينيات في ظل ما يعرف «بالحملة الصليبية» ضد الاتحاد السوفيتي والحظر، حتى أن الأمر قد بلغ حد الاستفزازات السافرة، ففي عام ١٩٢٣م اغتيل في لوزان المندوب المفوض فوروفسكي، وفي عام ١٩٢٦م اغتيل حامل الحقيبة الدبلوماسية نيتّه، وفي عام ١٩٢٧م اغتيل في وارسو المندوب المفوض فويكوف، وفي عام ١٩٢٦م قامت إنجلترا بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي (واستؤنفت في عام ١٩٢٩م).

ومع ذلك شهدت أعوام ١٩٢٤- ١٩٢٥م موجة واسعة من الاعتراف بالدولة السوفيتية كانت تتويجا لجهود متواصلة بذلتها الدبلوماسية السوفيتية على مدار سنين طويلة، حتى أن صحيفة "إزفيستيا" نشرت رسما كاريكاتوريا تصور فيه تشيتشيرين يتصبب عرقا وقد أنهكت قواه وهو يتسلم مذكرات الاعتراف من لفيف من الدبلوماسيين الأجانب الذين حاصروه. فعلى مدار عامين أعلن اعترافه بالاتحاد السوفيتي كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا واليابان والصين والمكسيك والسويد والنرويج والنمسا والدانمارك واليونان. وشهد مقر اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية في شارع كوزنيتسكي موست

بموسكو لقاءات رسمية مع السفراء الأوائل لهذه الدول. وبدأ نشاط الدبلوماسيين السوفيت يؤتي ثمارا ملموسة في بضع سنين، ففي النصف الثاني من العشرينيات ومطلع الثلاثينيات وقعت حكومة الاتحاد السوفيتي سلسلة من المعاهدات تنص على الحياد وعدم الاعتداء مع كل من تركيا وفارس وأفغانستان وفنلندة وألمانيا وفرنسا وإيطاليا.

وبعد قيام الاتحاد السوفيتي انتقلت صلاحيات السياسة الخارجية لدى جمهوريات الاتحاد إلى السلطة الاتحادية المركزية، حيث تم إلغاء اللجان الشعبية للشؤون الخارجية بالجمهوريات، وفي ٦ يوليو ١٩٢٣م أنشئت اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية للاتحاد السوفيتي، وفي مذكرة موجهة إلى الدول الخارجية بتاريخ ٢١يوليو ١٩٢٣م أعلن تشيتشيرين مفوض الشعب للشؤون الخارجية (رئيس اللجنة - المترجم) عن قيام اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية والتعديلات التي أدخلت على نظام الدولة، كما أعلن أن كافة الاتصالات الدولية ستتم منذ هذه اللحظة من خلال اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية للاتحاد السوفيتي. وعُهِد إلى اللجنة الشعبية مهام إقامة العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفيتي والدول الخارجية، وحماية المصالح السياسية والاقتصادية للبلاد، والدفاع عن حقوق المواطنين السوفييت في الخارج والإشراف على تنفيذ المعاهدات والاتفاقيات الموقعة مع الدول الخارجية.

وكانت أجهزة اللجنة الشعبية في الخارج تتمثل في المفوضيات والقنصليات، إلى أن تم في عام ١٩٢٦م اعتماد الميثاق القنصلي للاتحاد السوفيتي الذي أصبحت المؤسسات القنصلية تنقسم بمقتضاه من حيث

أهميتها وصفتها القانونية إلى قنصليات عامة، وأقسام قنصلية بالمفوضيات، وقنصليات، ومكاتب نواب قنصل، ووكالات قنصلية.

وتطلب التوسع في نشاط اللجنة المسؤولة عن السياسة الخارجية السوفيتية تعيين كوادر جديدة، وكانت قيادة البلاد تدرك وقتها أن الإلمام بأحوال الدولة مقر العمل ومعرفة لغتها وعاداتها لابد أن يكون هو الشرط الأساس الواجب توافره في المرشحين للعمل الدبلوماسي، ولذلك أولي اهتمام كبير بالبحث عن أفراد يتمتعون بهذه الصفات ومخلصين في الوقت نفسه لمبادئ الثورة ومثقفين ثقافة شاملة ولديهم خبرة في العمل الحزبي والقيادي، وكان نذير تيورياقولوف مندوب الاتحاد السوفيتي المفوض في المملكة العربية السعودية واحدا من هؤلاء.

ولا يمكن أن نتناول المسيرة الدبلوماسية لنذير تيورياقولوف دون أن نتطرق بعض الشيء إلى سلفه في هذا المنصب كريم حكيموف، حيث إن هذا سيمكننا من عمل تصور أكثر شمولا عن العلاقات السوفيتية السعودية وأحوال المملكة في الفترة التي تولى فيها تيورياقولوف منصب المندوب المفوض هناك، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى سيساعد هذا على إدراك أسلوب العمل البرجماتي واللبق في الوقت نفسه والذي كفل الاحترام والتقدير لكلا الدبلوماسيين في المملكة، علاوة على فعاليته الكبرى في ضمان مصالح الاتحاد السوفيتي.

لقد سبق تعيين كريم حكيموف فترة من الاتصالات الأولى بين الاتحاد السوفيتي والمملكة العربية السعودية والتوصل إلى اتفاق بشأن إقامة علاقات

دبلوماسية بين البلدين، الأمر الذي من شأنه أن يثير فضول الباحثين المعنيين بتاريخ الدبلوماسية، أضف إلى ذلك أنه رغم الاختلاف البين في الأصل ومستوى الثراء بين كلا الدبلوماسيين المتماثلين في العمر فإن هناك تشابها يثير الدهشة في تاريخ حياتهما قبل العمل باللجنة الشعبية للشؤون الخارجية، وكذلك في تدرجهم بالسلك الدبلوماسي وما تلا ذلك من مصير مأساوي.

ولد كريم حكيموف عام ١٨٩٢م في قرية صغيرة على حدود بين بشكيريا محافظة أورينبورغ، وفي الثانية عشرة من عمره بدأ العمل أجيرا في أملاك الباي[١] المجاورة. وقضى كريم فترة صباه يتنقّل من مكان إلى مكان بحثا عن لقمة العيش فعمل بوابا وكنّاسا عند أحد التجار، وعاملا في السكك الحديدية، وعاملا بأحد مناجم الفحم الحجري، كما جرّب نفسه في العديد من المهن الأخرى، ومع ذلك كان دائما يبدي ميلا إلى الدراسة والتعلّم، ورغم الحالة المادية الصعبة التي كانت تعيشها أسرته ألحقه والده في طفولته بمدرسة القرية، حيث تعلّم الكتابة العربية وقراءة القرآن وغيره من كتب الدين الإسلامي، وفي الفترة من ١٩٠٨ إلى ١٩١٠م درس في كُتّاب في أورينبورغ ثم في أوفا التي كانت إلى جانب العلوم الدينية تقوم بتدريس مواد التعليم العام إلى جانب اللغة الروسية. وفي تلك الفترة لم يكن حكيموف يتخيل أن إلمامه بنمط الحياة والمعيشة والعادات والتقاليد لدى الشعوب الإسلامية في روسيا القيصرية، وكذلك التعليم الديني المتعمق الذي تلقاه، سيعينه بعد فترة وجيزة في عمله كدبلوماسي قادر على حسن تمثيل مصالح الدولة السوفيتية الشابة

(١) لقب كان يطلق على الأثرياء من أصحاب الأملاك في آسيا الوسطي قبل ثورة ١٩١٧م (المترجم).

في دول المشرق العربي. فحكيموف، شأنه شأن تيورياقولوف، انصقل في بوتقة الحرب الأهلية والعمل الحزبي بالدولة.

بدأ حكيموف مشواره الدبلوماسي في عام ١٩٢٠م عندما عُيِّن نائبا لمندوب روسيا المفوض لدى جمهورية بُخارى الشعبية السوفيتية، كما عمل قنصلا عاما في مشهد ورشت (في فارس)، وكان عضوا في اللجنة السوفيتية الفارسية المشتركة، وفي عام ١٩٢٤م رُقِّي إلى منصب جديد حيث أصبح أول وكيل دبلوماسي وقنصلاً عاماً في مملكة الحجاز في شبه الجزيرة العربية.

وتجدر الإشارة إلى أنه في ديسمبر من عام ١٩٢٢م وخلال مؤتمر لوزان كان قد جرى لقاء بين تشيتشيرين مفوَّض الشعب (رئيس اللجنة الشعبية - المترجم) للشؤون الخارجية بجمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية ولطف الله ممثل شريف الحجاز، وبعث تشيتشيرين بخطاب إلى نائبه ليتفينوف يبلغه فيه بمضمون محادثاته مع لطف الله حيث جاء في الخطاب: "... لقد تحدثت عن الرغبة في إعادة افتتاح القنصلية الروسية في جدة، وهو (لطف الله) أيضاً أبدى تصميمه الشديد على ذلك، وأنا بالفعل أرى أن من الأهمية الكبرى أن يكون لنا قنصل في جدة، فهي تقع بجوار مكة، ومكة ممنوع إقامة المسيحيين بها، أما جدة فهي عاصمة مملكة الحجاز، وقنصلنا هناك سيكون في قلب العالم الإسلامي لأن جميع الحجاج يمرون من خلالها، وكثير من الحركات السياسية التي تحدث في العالم الإسلامي وتغيب عن أعيننا الآن ستكون تحت نظر قنصلنا، وسياستنا تجاه العالم الإسلامي تتطلب منا -في رأيي- أن يكون لنا رجلنا في قلب العالم الإسلامي".

واستمرت المفاوضات بشأن إقامة علاقات رسمية بين الاتحاد السوفيتي والحجاز قرابة العامين على فترات، ولم تستقر الاتصالات المنتظمة إلا في نهاية عام ١٩٢٣م عندما وصل لطف الله إلى إيطاليا مبعوثاً للحجاز في روما التي كان يوجد بها بعثة للاتحاد السوفيتي. وفي الثالث من أبريل عام ١٩٢٤م بعث تشيتشيرين بخطاب إلى يورينيف المندوب السوفيتي لدى إيطاليا يبلغه فيه بقرار موسكو بتعيين كريم حكيموف قنصلا عاما للاتحاد السوفيتي في الحجاز، حيث كتب تشيتشيرين بهذا الصدد يقول: "إن قرار الدخول في علاقات دبلوماسية مع الحجاز اتخذته أعلى هيئة]المكتب السياسي لحزب البلاشفة [منذ أن كنت في لوزان... وقد تم تنفيذ هذا القرار... فالاتحاد السوفيتي شأنه شأن كافة الدول الأخرى سيكون له قنصل عام في الحجاز، والحجاز سيكون لها مبعوث في موسكو... ومن الأهمية الكبرى بالنسبة لنا أن ندخل إلى مكة، ولهذا السبب تحديدا قررنا تعيين مواطن مسلم في منصب القنصل العام كي يمكنه التواجد في مكة، وفي الوقت نفسه لم نجد مسلمين يناسبون هذا المنصب غير الرفيق حكيموف رغم أننا بحثنا طويلا. والرفيق حكيموف به بعض العيوب، ولكن عيوب المرشحين الآخرين أكبر بكثير، والرفيق حكيموف اعتاد على سياستنا لأنه شغل مناصب لدينا على مدار سنوات عدة. ولقد قررنا أن يغادر الرفيق حكيموف البلاد متوجها إلى الحجاز في أقرب وقت".

وفي الرابع والعشرين من أبريل عام ١٩٢٤م تسلمت موسكو برقية من وزير خارجية الحجاز جاء فيها أن المكاتبات بين الاتحاد السوفيتي والحجاز

من خلال المبعوث الحجازي في روما قد أوضحت أن لدى الحجاز «رغبة كبرى» في إقامة علاقات رسمية مع الاتحاد السوفيتي، وذكر الوزير الحجازي في برقيته قوله "إننا في انتظار مندوبكم الذي قمتم بتعيينه حسب رؤيتكم". وفي اليوم نفسه قام ميخائيل كالينين بتوقيع أوراق الاعتماد الخاصة بتعيين كريم حكيموف وكيلا دبلوماسيا وقنصلا عاما للاتحاد السوفيتي في الحجاز.

وفي يونيو ١٩٢٤م غادر أول ممثل للاتحاد السوفيتي في الجزيرة العربية موسكو متوجها إلى الحجاز، حيث وصل إلى جدة مع أسرته وأعضاء القنصلية العامة في أواخر يوليو، وقد سُمح له بصفته مسلما بتسليم أوراق اعتماده في مكة إلى حسين شريف الحجاز، وكان ذلك في التاسع من أغسطس ١٩٢٤م، وأصبحت بعثة الاتحاد السوفيتي في جدة أول تمثيل رسمي سوفيتي في البلدان العربية، وقضى حكيموف في عمله بالحجاز أربعة أعوام.

وجاء الوكيل الدبلوماسي والقنصل العام الجديد نذير تيورياقولوف ليحل محل حكيموف في هذا المنصب في سبتمبر من عام ١٩٢٨م، بعد أن تم تعيين حكيموف مندوبا لهيئة التمثيل التجاري السوفيتي في الشرق الأوسط «بليجفوستوكينتورغ» في اليمن. ومن الواضح أن تلك الفترة الحرجة كانت تتطلب أن يشغل منصب المندوب المفوض في المملكة السعودية رجل قادر ليس فقط على تعزيز ما تم تحقيقه من تقدم، وإنما أيضا رجل دبلوماسي في مقدوره أن يثبت ذاته -في أفضل صورة وفي أقل زمن- في الدولة مقر العمل، وقد أظهرت الأعوام الثمانية التي قضاها تيورياقولوف في منصب المندوب المفوض في المملكة العربية السعودية أنه قد اضطلع بالمهمة الموكلة إليه على أكمل وجه.

ولكن دعونا نعود إلى الظروف التي بدأ فيها تيورياقولوف مباشرة مهامه الجديدة، كانت شبه الجزيرة العربية آنذاك تشهد أحداثا مهمة، حيث تمكّن حاكم سلطنة نجد -قوي العزم والإرادة عبد العزيز آل سعود- من الإطاحة بحكومة الشريف حسين حاكم الحجاز ساعيا بذلك إلى توحيد أكبر قدر من الجزيرة العربية تحت سلطته. ولهذا السبب وضعت قيادة اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية من بين مهامها "... الحفاظ على علاقات الصداقة مع الحجاز... مع عدم تفويت فرصة التواصل مع القوة الجديدة التي ظهرت في الجزيرة العربية وهو ابن سعود"، لأن مصالح الاتحاد السوفيتي كانت تقتضي توحيد أراضى الجزيرة العربية في كيان واحد، "فإذا انتهج ابن سعود سياسة توحيد العرب فسيتفق هذا ومصالحنا، وسيتعين علينا محاولة التقارب معه مثلما فعلنا مع الشريف حسين الذي كان يبذل محاولات لتوحيد الجزيرة العربية".

في تلك السنوات تم تقسيم العالم العربي إلى مناطق نفوذ بين إنجلترا وفرنسا بموجب اتفاقية "سايكس - بيكو"، ولم يكن هناك سوى دولتين وحيدتين من الدول العربية تتمتعان بالاستقلال الفعلي هما دولة اليمن ودولة الحجاز ونجد، ولذلك لم يكن من قبيل المصادفة أن حدد الاتحاد السوفيتي هاتين الدولتين بالذات ليكون له فيهما تواجد سياسي وتجاري. وفي يناير من عام ١٩٢٦م تم إعلان عبد العزيز آل سعود ملكا للحجاز وسلطانا لنجد وملحقاتها وكان يبلغ من العمر أربعة وأربعين عاما، وقام بأداء مهمته التاريخية كسليل لعشيرة بدوية عريقة، حيث وحّد مختلف أجزاء شبه الجزيرة

العربية مترامية الأطراف في دولة واحدة، إلا أنه واجه موقفا صعبا لأن مملكته لم يكن لديها سند خارجي متين، فبريطانيا كانت ضد توحيد الجزيرة العربية، وألمانيا لم تكن قد تعافت بعد من الهزيمة، أما الولايات المتحدة الأمريكية فلم تكن في ذلك الوقت تعير المملكة الصحراوية أي اهتمام.

وفي هذه الفترة العصيبة كان من الأهمية الكبرى للدولة السعودية أن تجد لنفسها «حليفا» قويا في العالم، ولذا عندما مدَّ الاتحاد السوفيتي إليها «يد العون» كان ذلك في الوقت المناسب تماما، حيث كان الاتحاد السوفيتي أول دولة في العالم تعترف بالمملكة الجديدة في شبه الجزيرة العربية، وكان ذلك في ١٦ فبراير ١٩٢٦م عندما تسلم آل سعود مذكرة رسمية جاء فيها: "انطلاقا من مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها... تعلن حكومة الاتحاد السوفيتي اعترافها بكم ملكا للحجاز وسلطانا لنجد وملحقاتها، وبناءً عليه تعتبر الحكومة السوفيتية نفسها في حالة علاقات دبلوماسية طبيعية مع حكومة جلالتكم". وردا على هذا بعث آل سعود بمذكرة أعرب فيها عن "استعداده الكامل لبناء علاقات مع حكومة ومواطني الاتحاد السوفيتي على نفس مستوى علاقات المملكة مع الدول الصديقة".

إن موقف الحكومة السوفيتية التي كانت أول من اعترف بدولة آل سعود كان له أهمية كبرى في تعزيز وضع المملكة السعودية دوليا، ففي حقيقة الأمر دفع الاعتراف السوفيتي إنجلترا وغيرها من الدول الكبرى إلى الاعتراف بالمملكة، رغم أنه من الواضح أنهم كانوا مضطرين لذلك بسبب هزيمة أنصار بريطانيا داخل السلطة في الحجاز.

ومن الواضح أن قرار الحكومة السوفيتية بالاعتراف بالدولة الجديدة في شبه الجزيرة العربية كان خطوة مهمة من قبل دولة ذات نفوذ في العالم وخطوة لها ثمنها، وقد قدّر الملك آل سعود تحركات موسكو حق التقدير، وبذلك وُضِعَت اللبنة الأولى للعلاقات بين الدولتين.

ولكن الوضع الذي كان فيه الملك أملى عليه مواصلة الالتفات إلى لندن، فقد كانت بريطانيا تحتفظ بمكانة قوية في شبه الجزيرة العربية، ولم تكن ترغب في التخلي عن نفوذها في المنطقة الذي ظلت تحارب من أجله عشرات السنين، وقد كتب لورنس العرب عن هذا بنغمة لا تخلو من الفخر بأمّته حيث ما فتئ يؤكد أن المواطنين البريطانيين الذين خدموا في المشرق العربي قد "أسعدهم الحظ بأن جمعوا بين... الإلمام بظروف المنطقة من ناحية والخبرة والفراسة من ناحية أخرى" مما ترك على سبيل المثال انطباعا كبيرا لدى الشريف عبد الله (النجل الثاني للشريف حسين شريف مكة) لدرجة أن "هذا الرجل، رغم أنه كان لا يثق في أحد على الإطلاق، كان يعتبر تدخلهم الحذر ضمانا كافيا لبدء الانتفاضة ضد تركيا، وظل على ثقته بسمعة البريطانيين طيلة الحرب رغم ما كانت تعج به هذه الحرب من مواقف مريبة وخطيرة".

كذلك «ورث» الحاكم الجديد للحجاز إلى حد ما هذه الثقة العمياء في بريطانيا خلال فترة الصراع مع تركيا، الأمر الذي تطلب من تيورياقولوف جهودا ضخمة ليتمكن من النهوض بمكانة البعثة السوفيتية من ناحية ورفع مكانته الخاصة بالمجتمع الدبلوماسي في جدة من ناحية أخرى، ويبدو أنه في نهاية عام ١٩٢٩ وبداية ١٩٣٠م كانت هذه المسائل تُناقَش بشكل موسع في

القصر الملكي والحكومة الحجازية والدوائر الدبلوماسية، لذلك كان تيورياقولوف في رسائله إلى موسكو في هذه الفترة يتطرق كثيرا إلى المسائل الخاصة بوضع البعثة.

ففي ذلك الوقت كانت إدارة الشؤون الخارجية بالحكومة الحجازية تفكر بين الحين والآخر في إنشاء بعثات دبلوماسية لها في الخارج، وكذلك رفع درجات المبعوثين الأجانب المعتمدين لدى الملك، حيث أشار فؤاد حمزة وزير الخارجية بالإنابة أن من المزمع إيفاد مبعوث واحد إلى إنجلترا وهولندا ومبعوث إلى فرنسا وسويسرا (أو ألمانيا) ومبعوث إلى الاتحاد السوفيتي وتركيا، وهذا يرجع إلى عدم توافر الكوادر ولأسباب اقتصادية. وقد أثارت مسألة البعثات السعودية بالخارج قضية رفع درجات المبعوثين الأجانب في جدة وعلى رأسهم المبعوث الإنجليزي بوند الذي كان في ذلك الوقت على درجة قائم بالأعمال.

وبالطبع لم يكن في مقدور تيورياقولوف التأكد مما ستنتهي إليه هذه الأفكار، وهل سيستوي الجميع في الدرجات أم أن المبعوث الإنجليزي سيكون أعلى من الآخرين، ولكن يمكن الإشارة هنا إلى أن فؤاد حمزة بحكم موالاته السافرة لبريطانيا كان حريصا على حل هذه المسألة لصالح الإنجليز، أما موقف فرنسا وهولندا وإيطاليا وتركيا في هذا الشأن فظل مجهولا، وفيما يخص الاتحاد السوفيتي فإن موضوع إنشاء سفارة سوفيتية كان قد طرح أيام حكيموف ولكن الوضع قد تغير الآن، وفي هذا الصدد كتب نذير تيورياقولوف إلى لجنة الشؤون الخارجية يقول: "إن المبادرة على قدر علمي ستأتي هذه

المرة من الحكومة الحجازية، وبناء على ذلك وفي ضوء هذا الوضع الجديد يُطْرَح السؤال: ما الموقف والتكتيك الذي يتعين علينا اتباعه، هذا أولا. وثانيا ماذا بشأن وضع القطاع القنصلي في بعثتنا، فطبقا لتصنيف اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية يوجد لدينا قطاع قنصلي يترأسه طبقا للائحة وطبقا للتقليد الساري الرفيق تويميتوف. وانطلاقا من ضرورة البدء في الاستعداد لإمكانية تغيير وضع بعثتنا أرجو إصدار المستندات اللازمة لرئاسة تويميتوف للقطاع القنصلي حتى أتمكن من تسجيل هذا الوضع هنا في اللحظة المناسبة".

جدير بالذكر أن القيادة في موسكو كانت تعي أيضا أهمية اختصار الوقت والجهد وكانت في أغلب الأحيان لا تهمل في الرد على مقترحات تيورياقولوف، فمثلا بخصوص فصل المهام القنصلية طلبت اللجنة الشعبية من مندوبها إرسال مقترحات محددة، حيث كتبت إليه تقول : "نحن حتى الآن نرى إمكانية أن توكلوا المهام القنصلية إلى أحد أعضاء البعثة خاصة وأن حجم هذه المهام في الحجاز ليس كبيرا، ونحيطكم علما بأن فصل المهام القنصلية في البعثات الدبلوماسية لا يتم بالضرورة عن طريق إنشاء قنصلية منفصلة أو حتى قطاع قنصلي، ومثال ذلك السفارة الفارسية في موسكو، فرغم أن حجم الأعمال القنصلية بها كبير للغاية إلا أنه من الناحية الشكلية لا يعمل بها موظف قنصلي واحد، والسكرتير الثاني بالسفارة هو المكلّف بالمهام القنصلية".

إن سبق الاتحاد السوفيتي في الاعتراف باستقلال الدولة السعودية والشكر الذي كثيرا ما أعرب عنه القصر الملكي والحكومة على هذا الاعتراف

أعطى أملا كبيرا في إمكانية أن يتطلع المندوب المفوض السوفيتي إلى مكانة رائدة في التدرج الدبلوماسي في السعودية، ونلاحظ أن تيورياقولوف قد تطرق إلى هذه المسألة دوما في مذكراته إلى قيادة اللجنة الشعبية، إلا أن هذا الموضوع قد طُرح بشكل قوي في نهاية عام ١٩٢٩م، حيث أكد المندوب المفوض قوله : "إننا هنا نتنازع منذ زمن، من عهد حكيموف بشأن عمادة الدبلوماسيين، وحكيموف لم يتمكن من حل هذه المسألة بوسائله ولا يزال. وكان تكتيكنا في هذا الشأن يتلخص في ترشيح الدبلوماسي التركي، ولكنه للأسف كان دائما يفسد الأمر بتنازله لصالح الإنجليزي وكأن هذا تنازل شخصي منه، وغدا الاثنان يحاولان تدريجيا تثبيت عمادة الإنجليزي كتقليد سار، وكانت آخر محاولة من هذا النوع في الرابع عشر من يوليو خلال الاحتفال بعيد باستيليا بالقنصلية الفرنسية، رغم أنني أبلغت ساني بيه مسبقا من خلال الرفيق تويميتوف بوجهة نظرنا في عمادة الدبلوماسيين ورغبتنا في أن يتحدث هو في احتفال الفرنسيين باسمنا جميعا".

ترى كم كانت دهشة تيورياقولوف ورفاقه من الدبلوماسي التركي الذي قبل الاقتراح في البداية ثم فجأة قام بأداء دور آخر تماما غير الدور المتفق عليه؟ يروي تيورياقولوف القصة فيقول : "جرى أمام أعيننا هذا المشهد العجيب: بدلا من أن يقوم التركي حسب اتفاقنا بدور كبير الدبلوماسيين نهض في حضور القناصل وممثلي الدولة السعودية وقام بدور مترجم بسيط يترجم كلمة الإنجليزي إلى اللغة العربية، وبدا المترجم قائلا : "المندوب الإنجليزي الموسييه بون يتفضلون بالقول..." . وقد أراد الإنجليزي بهذه الطريقة أن يمرر

قراره خلسة ولو على سبيل السبق. وردا على ذلك قمت باستمالة الفارسي وفي الذكري الثالثة لإعلان الجمهورية التركية سبقت الإنجليزي وألقيت كلمة ترحيب باللغة العربية باسم جميع أعضاء السلك الدبلوماسي".

وبعد هذه الحادثة التي فهمها الجميع على أنها عدم رغبة منّا في التنازل عن حقنا تطرق وزير الخارجية في حواره معي إلى موضوع الأسبقية التي ستتبعها الحكومة الحجازية تجاه رؤساء البعثات الدبلوماسية، حيث صرح بأن الحكومة الحجازية ترى أن المركز الأول سيشغله من وجهة نظرها ساني بيه والثاني أنا والثالث موسييه بوند والرابع موسييه ميغريه (الفرنسي)، وسألني ف. (فؤاد حمزة -المؤلف) عن رأيي في هذا، فصرحت أنني ليس لدي أي اعتراضات على هذا الترتيب، وعلى هذا الأساس أصبحت أشغل المرتبة الأولى في كل مكان (نظرا لتغيب التركي)، وعززت في نفس الوقت من أسبقيتي على الإنجليزي، ففي الحفل الذي أقامه المحافظ على شرف الأمير فيصل كان مكاني إلى يمين الأمير ولم يعترض أحد من الآخرين على ذلك، وبهذا الشكل يكون ساني بيه قد وُضِع في المرتبة التي كان يتنازل عنها لصالح الإنجليز. وتنتشر هنا حاليا شائعات تقول أن ساني بيه لن يعود، وأن من المتوقع أن يحل محله سكرتير السفارة التركية في مصر (وهو شاب في الخامسة والثلاثين أو السادسة والثلاثين من عمره، من حاشية محي الدين باشا)، وإذا لم يرجع ساني بيه فعلا فهذا معناه أن العمادة ستكون لنا". ومع ذلك كان تيورياقولوف يدرك بنفسه، ويحاول أن يبلغ قيادة اللجنة الشعبية أن الحديث لا يدور بعد عن الإقرار بريادته بين أعضاء السلك الدبلوماسي وإنما يدور فقط عن اعتراف الحكومة السعودية بأسبقيته.

وفي غضون ذلك كانت هيبة تيورياقولوف ونفوذه بين الدبلوماسيين الأجانب في تزايد مستمر، وقد ساعد على ذلك بدرجة كبيرة سعة ثقافته ومعرفته للغة وقدرته على الموازنة بين مصالح أطراف عديدة في آن واحد، وكذلك علاقاته الوثيقة مع الإدارة المحلية، فاقترابه من شغل مرتبة عميد الدبلوماسيين كان نتيجة منطقية لعمله المتميز.

وفي خطابه إلى ليتفينوف مفوض الشؤون الخارجية السوفيتي بتاريخ ١٦ أبريل ١٩٣٠م كتب تيورياقولوف يقول إن "نزاعنا التاريخي مع الإنجليز من أجل عمادة الدبلوماسيين يعتبر قد انتهى لصالحنا، فكما تعلمون حتى الآونة الأخيرة لم نكن «نلتقي» مع الإنجليز (بوند)، فهم لم يرغبوا أن يبادروا بزيارتنا، ومع وصول المبعوث الإنجليزي السير اندريو ريان انفرج الموقف حيث قام السير ريان بزيارتنا (وكنت وقتها أؤدي فريضة الحج)، والآن تطبعت العلاقات بيننا وبين الإنجليز تماما. وفي الاحتفالات الرسمية أشغل أنا المرتبة الأولى وريان الثانية والموسيه ميغريه القائم بالأعمال الفرنسي الثالثة وعين المُلّك الرابعة. وأشير هنا إلى أن ريان يتصرف معي بأدب بالغ حيث يتعامل معي في بعض الأحيان بصفتي عميد الدبلوماسيين". وظل الغموض يخيم على وضع التركي ساني بيه «منافس» تيورياقولوف في الصراع على منصب العميد، ولكن لم تصل أي أوامر من أنقرة بشأنه فأصبح غير راض عن وضعه هذا مما جعله يبتعد عن حضور الاحتفالات حتى «لا يجلس في الصفوف الخلفية».

وسرعان ما أقر الدبلوماسيون الأجانب بالوضع الجديد لتيورياقولوف، ففي احتفالات التتويج التي جرت في وادي فاطمة في التاسع من يناير عام

١٩٣٠م ألقى تيورياقولوف بصفته «عميد الدبلوماسيين» كلمة ترحيب باسم أعضاء السلك الدبلوماسي، كما أصبح الجميع يتوجهون إليه تحديدا في حالة ظهور أي نزاعات أو سوء فهم سواء في المجتمع الدبلوماسي أو الدوائر الأجنبية بشكل عام، فقد حدث هذا مثلا عندما ظهرت بين الإنجليز فكرة إنشاء ناد أوروبي، وقد كتب تيورياقولوف عن هذا يقول: "بوند يترأس الموضوع، وفيلبي «الشارجيه دافير» (القائم بالأعمال - المترجم) الإنجليزي في صفوف المعارضة، حيث يطالب بمشاركة جميع الأوروبيين في هذا الموضوع ويتهم بوند بالاستعجال في هذه المسألة، رغم أنه من المفترض أن يغادر بوند جدة قريبا"، حتى أن فيلبي ارتأى من الضرورة أن يرسل إلى تيورياقولوف نسخة من مكاتباته مع بوند بهذا الخصوص مسجَّلا عليها عبارة "إلى تيورياقولوف بصفته عميد الدبلوماسيين"، ومن جانبهم أرسل القائمون على تنظيم النادي إلى البعثة السوفيتية ميثاق النادي الذي قاموا بصياغته. ورد تيورياقولوف على فيلبي بكل ما يملك من دبلوماسية قائلا إنه "لا يستطيع أن يأخذ على عاتقه مناقشة موضوع يخص مجموعة محدودة من الأوروبيين".

ومن بين القضايا الرئيسة التي كانت تشغل تيورياقولوف هو وضع البعثة التي تُعد في حقيقة الأمر واجهة الدولة، ولاسيما أن المجتمع الدولي كان في ذلك الوقت يعطي أهمية كبيرة لهذه المسائل التي يبدو للوهلة الأولى أنها مسائل شكلية، ولذلك كان هذا الموضوع يشغل دائما حيزا في مكاتبات تيورياقولوف إلى موسكو، حيث يقول في إحدى مذكراته: "وأنتقل إلى موضوع درجات البعثات الدبلوماسية حيث يمكنني إبلاغكم بما يلي: خلال محادثاتي

الأخيرة مع ف. سألته عن تصوراته بشأن الدرجات وإيفاد البعثات الدبلوماسية إلى الخارج، وكرر شكواه القديمة من ضرورة التزام الحكومة بترشيد الإنفاق وعدم توافر الكوادر المناسبة، وأضاف في الوقت نفسه فإن الحكومة تود منحي والإنجليزي والتركي والفرنسي درجة واحدة، مثلا درجة سفير، وأن الفرنسي الموسييه ميغريه (أيضا قدم أوراقه بصفة «شارجيه دافير» (قائم بالأعمال - المترجم) وكان حتى هذا الوقت بدرجة قنصل). وردا على سؤالي حول الموعد والمدة أجاب فؤاد حمزة بأنه سيبلغني بهذا مسبقا. ويمكن التكهن بأن الحجازيين يودّون أولا أن يعرفوا رأي لندن بخصوص المندوب الإنجليزي في جدة. وأنا أود - إذا وافقتم على هذا - أن أعلن في اللحظة المناسبة رأينا المبدئي في هذه المسألة وهو أن الجميع سواسية وليس هناك من وجهة نظرنا دول «كبيرة» ودول «صغيرة». وأنا في انتظار تعليماتكم".

وجاء الرد على الفور من موسكو يقول: "نرسل إليكم طي هذا البريد أوراق اعتمادكم مندوباً مفوضاً (مع التمتع بحقوق مبعوث فوق العادة ووزير مفوض). ولإصدار المستندات الخاصة بذلك لابد من استصدار قرار شكلي من اللجنة التنفيذية المركزية وسنقوم بإبلاغكم بهذا لاحقا عن طريق البرق. ونأمل أن تتمكنوا من تحويل القنصلية العامة إلى بعثة بالنظام المعمول به وعدم التخلف عن بقية الأجانب".

بيد أن تيورياقولوف لم يتمكن مع ذلك من تنفيذ تعليمات اللجنة الشعبية بصورة كاملة، ولكنه لم يكن له ذنب في ذلك، فبعض رجال السلطة السعودية

كانوا لا يزالون ينطلقون في تحركاتهم بشأن كافة القضايا ذات الأهمية آخذين لندن في الاعتبار بشكل كبير، ولم يكن من قبيل الدهشة أن حكومة الحجاز لم تعطِ موافقتها على تحويل مكتب التمثيل السوفيتي إلى بعثة دبلوماسية إلا بعد أن وافق «الفورين أوفيس» (وزارة الخارجية البريطانية - المترجم) في ديسمبر ١٩٢٩م على رفع درجة تمثيله في جدة.

ومع ذلك شهدت الأيام الأولى من عام ١٩٣٠م تبادلا للمراسلات بين الحكومة الحجازية وتيورياقولوف بشأن تغيير صفة الوكالة الدبلوماسية السوفيتية. حيث بعث المندوب السوفيتي برسالة إلى فؤاد حمزة تضمنت الآتي: "استنادا إلى بيان فخامتكم بتاريخ ١٤ ديسمبر من العام الجاري أتشرف بإبلاغكم نيابة عن حكومة بلدنا بما يلي: إن بيان فخامتكم بشأن موافقة صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها على تحويل الوكالة الدبلوماسية والقنصلية العامة للاتحاد السوفيتي في جدة إلى بعثة دبلوماسية قد قوبل بارتياح كامل، وأود أن أضيف أن قيام البعثة الدبلوماسية يتمشى ورغبة ومساعي حكومتنا التي أعربت عن ذلك في حينه. وأتشرف بإبلاغ فخامتكم بتحويل الوكالة الدبلوماسية والقنصلية العامة للاتحاد السوفيتي في جدة إلى بعثة دبلوماسية، وبهذه المناسبة أعرب عن أملي في أن يساعد هذا على مواصلة تحقيق المزيد من تعزيز وتوسيع علاقات الصداقة القائمة بين حكومتي بلدينا".

ورد فؤاد حمزة على الرسالة بالقول: "أتشرف بتأكيد استلامنا لخطابكم المؤرخ في ١ يناير ١٩٣٠م (١٣٤٨/٨/١هـ) والذي تبلغونا فيها بقرار حكومة

اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية بتحويل وكالتها الدبلوماسية في جدة إلى بعثة دبلوماسية اعتبارا من تاريخ خطابكم المذكور أعلاه. وبهذه المناسبة أتقدم إليكم بالتهاني وأعرب عن أملي في أن يكون هذا التغيير بداية عهد جديد في علاقات البلدين".

وفي ٢٦ فبراير عام ١٩٣٠م سلم تيورياقولوف إلى الأمير فيصل في مكة أوراق اعتماده الجديدة ليصبح مبعوثاً مفوضاً فوق العادة (وهي أعلى درجة دبلوماسية في الاتحاد السوفيتي في ذلك الوقت - المؤلف). ولعل من الطريف هو وصف تيورياقولوف في يومياته للظروف التي أحاطت بتسليم أوراق اعتماده حيث يقول: "يوم السادس والعشرين من فبراير ١٩٣٠م، في مكة مرة أخرى، في الساعة العاشرة مساء (وهذه الساعة المتأخرة سببها أننا كنا في شهر رمضان) وصلت إلى الحميدية (في مواجهة الكعبة) برفقة الرفيق تويميتوف وخالد بيه ياور الأمير ملتزمين بكافة بنود النظام المعمول به في السلك الدبلوماسي. يقف حرس الشرف ولفيف من ذوي الفضول، وبعد انتظار دام من ثلاث إلى أربع دقائق في مكتب الاستقبال قام الأمير فيصل باستقبالي في حضور أعضاء وزارة الخارجية، وبعد أن تبادلنا الكلمات قمت بتسليم أوراق الاعتماد. وقد تم اختيار هذه الليلة بالذات التي توافق «ليلة القدر» لتقديم أوراقي، وفي ذلك لمحة مجاملة واهتمام بشخصنا، فهذه الليلة طبقا للعقيدة الإسلامية تعد أفضل الليالي المباركة. ولننتظر ماذا يعد لنا القدر في مكة". وهكذا سلم نذير تيورياقولوف في مكة أوراق اعتماده في منصبة الجديد إلى نائب الملك في الحجاز، وتبادل الجانبان الكلمات، وفيما يلي نصها:

كلمة نذير تيوريا قولوف:

صاحب السمو!

لقد أولتني اللجنة التنفيذية المركزية الشرف، وأوكلت إلى مسؤولية كبرى بتعييني وزيرا مفوضا ومبعوثا فوق العادة لدى شخص صاحب الجلالة عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها.

والهدف من هذا التعيين هو تدعيم وتعزيز علاقات الصداقة القائمة بين البلدين لحسن حظنا.

وسأبذل كل ما في وسعي لتحقيق هذه المهمة، معتمدا على مشاعر الود السامية وعلاقات التعاطف التي شرفت بها من جانب صاحب الجلالة الملكية ومن جانب سموكم، وأيضا من جانب رجال الدولة منذ وصولي إلى هذا البلد، وآمل أن أحظى بالود نفسه والتعاطف في منصبي الجديد.

وأرجو من سموكم التكرم بإبلاغ صاحب الجلالة الملكية ودي واحترامي وأطيب أمنياتي لجلالته ولأعضاء الأسرة الملكية ولهذا البلد.

كما أرجو من سموكم إبلاغ جلالة الملك وشعبه النبيل أطيب أمنيات رئيس اللجنة التنفيذية المركزية بالاتحاد السوفيتي. واسمحوا لي أن أقدم لسموكم أوراق اعتمادي الخاصة بتعييني في منصبي الجديد، وأرجو من سموكم تقبل عميق تقديري لشخصكم.

كلمة الأمير فيصل ردا على كلمة تيورياقولوف:

السيد الوزير المفوض والمبعوث فوق العادة!

يسرني أن أتسلم من سيادتكم نيابة عن صاحب الجلالة أوراق اعتمادكم، التي تفضّل بإرسالها السيد رئيس اللجنة التنفيذية المركزية والخاصة بتعيينكم وزيرا مفوضا ومبعوثا فوق العادة لدى شخص صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها.

إن علاقات الود الكريمة التي تكرمتم سيادتكم بالإشارة إليها، والأمنيات الطيبة التي أعربتم من خلالها عن حرصكم على مواصلة علاقات الصداقة والعلاقات الطيبة وتعزيزها إنما هي مشاعر مشتركة تجمع بيننا.

ولاشك لديّ أننا نبدأ اليوم عهدا جديدا في علاقات بلدينا وأن هذا يضع الأساس المتين للصداقة بيننا.

وإني على ثقة من أن سيادتكم ستلقون كل تعاطف وعون من قبل صاحب الجلالة الملكية في أداء المهمة الموكلة إليكم، أما من جانبي ومن جانب رجال الدولة فستجدون رغبة صادقة في مساعدتكم في كل ما من شأنه تعزيز علاقات الصداقة بين البلدين.

وبهذه المشاعر أتسلم أوراق اعتماد سيادتكم نيابة عن والدي الجليل صاحب الجلالة الملكية، وأرجو من سيادتكم التكرم بإبلاغ أسمى التحيات وأطيب الأمنيات إلى فخامة السيد رئيس اللجنة التنفيذية المركزية بالاتحاد السوفيتي وإلى شعبه النبيل نيابة عن صاحب الجلالة الملكية وشعبه.

وأتمنى لسيادتكم التوفيق في عملكم.

وتعليقا على هذا الحدث ذكرت صحيفة "إزفيستيا" في عددها الصادر في ٣ يونيو ١٩٣٠م أن مسمى «الوكالة والقنصلية العامة» كان يطلق عادة على مكاتب التمثيل في الدول التي "لا تتمتع بالسيادة الكاملة" وأن "إقرار الاستقلال الفعلي والشكلي لدولة ابن سعود كان نتيجته إلغاء هذا الشكل القديم من مكاتب التمثيل الأجنبي". ومع ذلك كانت جهود تيورياقولوف وراء اكتساب مكتب التمثيل السوفيتي في جدة الوضع الذي يليق به، ليس هذا فحسب وإنما أكدت هذه الجهود مجددا مكانة الاتحاد السوفيتي على الساحة الدولية. وهذا ما أكده الدبلوماسيون الأجانب على الفور، فما أن تم إبلاغ كافة البعثات الدبلوماسية بتحويل التمثيل السوفيتي إلى بعثة دبلوماسية وتعيين تيورياقولوف مندوبا مفوضا حتى قام كل من «الشارجيه دافير» الفرنسي والإنجليزي (رغم أن الإنجليزي لم يبلغ البعثة السوفيتية بتحويل التمثيل الإنجليزي إلى بعثة دبلوماسية) وكذلك القنصل الإيطالي بإرسال خطابات إلى تيورياقولوف يهنئونه فيها بالمنصب الجديد، بينما قام بقية الدبلوماسيين بالتوجه إليه للزيارة.

وأبلغ توريقولوف موسكو بنغمة لا تخلو من الفكاهة بكامل تفاصيل عملية تحويل التمثيل الدبلوماسي السوفيتي إلى بعثة دبلوماسية ونظرة الدبلوماسيين الأجانب والصفوة السعودية لهذا الحدث، وكذلك «ترَقِّيه» حتى وصل إلى عميد الدبلوماسيين، ومن الملاحظ في مذكراته بهذا الشأن انتباهه إلى التفاصيل الدقيقة التي تبدو لأول وهلة تافهة، ولكنها تعد في الواقع مهمة للغاية لمواصلة العمل. ففي إحدى المذكرات نجد ما يلي: "بالنسبة لإبلاغ

مبعوثي الدول الصديقة برفع تمثيلنا سأقوم به بعد تسليم أوراق الاعتماد. وقد جرت مراسم تحويل القنصلية الإنجليزية إلى بعثة يوم الثاني والعشرين من ديسمبر، وأرسل المبعوث الإنجليزي بمذكرة إلى كافة البعثات ماعدا بعثتنا يبلغهم فيها بهذا التحويل وأيضا بتعيينه قائما بالأعمال، وهو مازال يواصل النزاع القديم بشأن عمادة الدبلوماسيين ولذا لم يقم بزيارتي حتى الآن، رغم أنني في كافة الاحتفالات والمآدب التي تقيمها الحكومة أجلس في المقعد الأول (على يمين الأمير) وهو في المقعد الثاني، وبعد كلمته التي ألقاها في القنصلية الفرنسية (في ١٤ يوليو ١٩٢٩م) وترجمها له ساني بيه (؟) قمت أنا بإلقاء كلمة باللغة العربية في العيد الوطني للجمهورية التركية نيابة عن أعضاء السلك الدبلوماسي بصفتي عميد الدبلوماسيين، وقتها رد هو بكلمة باسمه باللغة الفرنسية، وبعده تحدث كل من الموسييه ميغريه والسنيور سولاتسو. وبعد هذه المرة لم يعد بوند أول المتحدثين، مع أنه يحاول بكل السبل التأكيد على أنه يعترف بي عميدا للدبلوماسيين".

وفي مذكرة أخرى نقرأ: "في الثامن والتاسع من يناير ١٩٣٠م جرت احتفالات تتويج في قندارة، على بعد فرسخين من جدة، وفي المساء أقيمت مأدبة على حساب خصمنا محافظ جدة، وقد حضرها الأمير وجلست أنا على يمينه وأحمد زكي باشا على يساره، بينما جلس المحافظ على يميني وبعده بوند. وألقى حمزة خطابا مطولا وصف فيه شخصية الملك وكفاحه من أجل استقلال بلاده "مذ كانت الجزيرة العربية ترزح تحت نير الدخلاء"، ثم تطرق بعد ذلك بالتفصيل إلى الحالة الداخلية والخارجية للبلاد، مشيرا في حديثه عن

الإنجازات إلى تحويل أربع قنصليات إلى بعثات دبلوماسية (وهي بعثات إنجلترا والاتحاد السوفيتي وفرنسا وبلاد فارس)... كما تحدث عن إنجازات ابن سعود في إقرار النظام بالبلاد وفي مجال النشاط الثقافي. بعد ذلك -حسب التقليد المعمول به- قام مندوبو المؤسسات المختلفة بإلقاء الخطب والأشعار.

وقد قررت تأجيل كلمتي إلى مأدبة أخرى كان من المقرر أن تتم في اليوم التالي في وادي فاطمة(بين مكة وجدة)، حيث كانت هذه المأدبة تمولها مدينتا مكة وجدة ولها طابع شعبي أكثر من تلك، أيضا لم يتحدث بقية الدبلوماسيين. بعد ذلك جاء حمزة للتحدث معي واتضح أنه كان يتوقع أن أقوم بإلقاء كلمة ردا على خطابه، فقلت له إنه في مثل هذه الأحوال لابد أن يتفق معي مسبقا".

وأثناء الاحتفالات كان تيورياقولوف يواصل عمله، ولم ينس مراقبة وتسجيل العلاقات والتعاملات بين رجال السلطة السعودية مما ساعده على تقييم توزيع القوى السياسية في البلاد وإبلاغ إدارة اللجنة الشعبية بذلك، فنراه يكتب في أحد تقاريره: "لقد حدث شيء يسترعي الانتباه وهو أن حمزة بصفته المسؤول عن ترتيب الحفل لم يسمح «لمندوب جدة» بإلقاء كلمته ووقع خلاف بين حمزة والمحافظ قام الأمير بتسويته في اليوم التالي، حيث رفض المحافظ المشاركة في احتفالات وادي فاطمة، إلا أن الأمير تمكن من إقناع الرجل العجوز بصعوبة وأصلح بينهما، وقبل نهاية الاحتفال غادر حمزة إلى مكة. وقد حضر الاحتفال هذه المرة مندوبون من مكة وجدة على حد سواء، وكان ترتيب الجلوس وفق نظام اليوم السابق نفسه.

وفي اللحظة المناسبة ألقيت كلمة باللغة العربية، بعدها تحدث بوند (باللغة الإنجليزية)، ثم ميغريه (بالفرنسية). وكان تعاطف العرب مع كلمتي واضحا، فقد قوبلت كلمتي بهتافات جماعية من الحضور بينما مرت كلمتا بوند وميغريه دون أي دلالات للتفاعل، وقد حضر الاحتفال -إلى جانب الصحفيين المصريين- عدد كبير من السوريين والكويتيين ولفيف من زعماء البدو. ورغم أنني تحدثت باسم البعثات الدبلوماسية فإن كلمة بوند كان لها هدف واحد، وهو أن يبدي أنه لا يزال يصر على موقفه القديم بعدم الاعتراف بعمادتي، علاوة على دعم هيبة الاسم الإنجليزي أمام رعايا المستعمرات، كل ذلك يؤكد أن بوند قد قرر الاستمرار في موقفه إلى أن يصل المبعوث الإنجليزي الجديد الذي من المفترض أن يقوم بزيارتنا بصفته عضواً مستجداً بالسلك، ويسوي العلاقات بيننا. والعرب يراقبون علاقاتنا «الشخصية» بفضول".

إن رفع مرتبة التمثيل الدبلوماسي للاتحاد السوفيتي و«منصب عميد الدبلوماسيين» هي أحداث يمكن اعتبارها أعيادا بالنسبة لتيورياقولوف في غمرة العمل الروتيني الثقيل والمنهك الذي كان يقوم به، بيد أن هذا العمل لم يكن هو الأصعب، فتيورياقولوف كان يحب عمله ويعكف عليه بتفان وحماس، ولم يكن في الواقع يؤدي عمله خوفا وإنما مراعاة للضمير، ومع ذلك لم يكن رؤساؤه يتفهمون دائما أن هذا التفاني يتطلب جهدا كبيرا وبالتالي لابد من الراحة، حتى أنه اضطر لأن يطلب في إحدى خطاباته إلى اللجنة طلبا شخصيا نادرا ما يحدث، حيث كتب يقول: "أرجو من الإدارة ومنكم شخصيا

حل الموضوع الخاص بي، فمنحي إجازة في يناير هو استهزاء، فبما أنني ليس لدي ملابس شتوية وفي حاجة إلى الراحة وإلى تحسين صحتي فإنني مضطر لطلب تأجيل القيام بهذه الإجازة إلى الصيف". إلا أن المسألة لم تكن تكمن في السعي نحو الرفاهية وأسباب الراحة، وإنما كان هناك سبب آخر في رأي تيورياقولوف وراء عدم إمكانية قيامه بالإجازة الممنوحة له في شهر يناير، ألا وهو أن الحياة السياسية في البلاد كانت تدب فيها الحياة في الشتاء، قبيل موسم الحج، وتواجده هناك في هذا الوقت من السنة كان ضروريا، "... فالعودة إلى الاتحاد السوفيتي في الشتاء بغرض الراحة والعلاج أمر لا معنى له"، لذلك فهو يؤجل إجازته إلى الصيف عندما "تتجمد الحياة في البلاد (حتى الحروب تتوقف في هذا الوقت من السنة)، ويكون هناك إمكانية في الاتحاد السوفيتي سواء للراحة أو لتلقي البرنامج العلاجي المعروف".

كذلك كانت الحياة الداخلية والعمل اليومي بالبعثة يتطلب منه رعاية دؤوب، حيث ظلت مشكلة الكوادر من مترجمين ودبلوماسيين وأطباء... إلخ هي إحدى همومه الرئيسة طيلة الأعوام التي قضاها في العمل في جدة، ففي أحد خطاباته الأولى المفصلة إلى اللجنة والموجّه إلى باستوخوف يطرح تيورياقولوف «مسألة المترجم» الذي يؤدي دوراً كبيراً في نجاح مهمته - على حد تأكيده، إذ كتب يقول "لقد توفي الرفيق حكمت بيكينين ليلة السبت العشرين من يوليو في الساعة الثالثة صباحا. وستعرفون سبب وظروف الوفاة من تقرير الدكتور عبد الفتاح (من القنصلية الهولندية). وبعد أن أكد الطبيب الوفاة تم على الفور دفن الجثمان بمقابر أم الحواء في يوم الوفاة نفسه. ولم

يتم تشريح الجثة، لذلك لم يتحدد تطور المرض ونهايته إلا نظريا، استنادا إلى التشخيص.

أما بخصوص ملابسات إصابة بيكينين بالدوسنتاريا الباسيلياية (؟) فهي بالتقريب كما يلي : في صباح أول يوم لزم فيه الفقيد الفراش سألَنا عن أعراض الدوسنتاريا، ويبدو أن اهتمامه بأعراض هذا المرض كان يرجع إلى بداية إصابته به. وفي اليوم التالي (يُذكر أن المرض قد استمر من تسعة إلى عشرة أيام لا أكثر) استفهمت حرمنا نينا تيورياقولوفا من المريض وتوصلت إلى أنه قبل إصابته بيوم أو يومين شرب ماء (غير مغلي بالطبع) في السوق وبعدها أحس بتوعك. وذهب الفقيد فقرأ العديد من الكتب العلمية وعمل بالترجمة لبعض الوقت مع الدكتور باباجان، مستهينا بصحته وضرورة علاجه، زد على ذلك أنه في اليوم الأول من مرضه تناول عشر بيضات (بالصفار) مما زاد من تدهور حالته. واللافت للنظر أنه في الوقت الذي يقوم فيه بغسيل أواني البيت بالصابون كان في الوقت نفسه يسمح لنفسه بشرب الماء قبل غليه وأكل الخضر في الأسواق والبيوت. وقد لوحظ في اليومين الأول لمرضه بداية تعرضه لحالة هوس واضطراب نفسي، وفي اليوم الثالث والرابع بدأ يتخيل أشباحا، وبدأ يمزق ملابسه ويحاول القفز من النافذة بالطابق الثالث، كما فقد تدريجيا إمكانية التعرف على الناس والأشياء، وربما كانت هذه حالة نادرة للغاية من حالات الورم الدماغي.

وطبقا لعادات أهل البلد هنا لا يمكن ترك جثمان الميت في المنزل أكثر من يوم واحد، ثم إن الظروف المناخية هنا لم تكن تسمح بذلك، والباخرة لم

تكن قد وصلت حتى ذلك الحين. وفي ظل هذه الظروف اضطررنا لدفن الفقيد على الفور مع الالتزام بالمراسم الواجب اتباعها في بلادنا".

ولم ينس تيورياقولوف وهو ينعى الفقيد ويتألم لرحيله المهام الموكلة إليه حتى في هذه الظروف العصيبة، فنراه يبعث بتقرير إلى موسكو عن كافة رجال السلطة السعودية الذين حضروا الجنازة، كما يبلغ اللجنة الشعبية عن الفرص والإمكانات التي تتفتح أمام البعثة السوفيتية نتيجة الالتزام بتقاليد البلد في الجنازة، فهذا التصرف لم يبدو رياءً لأنه لم يكن به شيء مصطنع يتعارض مع ما كان يؤمن به بيكينين، ولم يكن مجرد رغبة في ترك انطباعات طيبة لدى أهل البلاد.

كتب تيورياقولوف يقول: "حضر الجنازة ساني بيه المندوب التركي ونجل لاري أفندي (القنصل الفارسي)، كما شارك فيها كافة أعضاء جاليتنا هنا. وجاء لتقديم العزاء كل من طه مساعد المحافظ ورئيس الشرطة وسكرتير وزارة الخارجية، وحمدي بيه القائم بمهام المبعوث الفرنسي (حيث أن ميغريه الآن في بيروت وجو في فرنسا) وممثله حسن بيه، بالإضافة إلى التجار ومعارف الفقيد وأصدقائه. كما جاء اليوم لتقديم العزاء أيضا محمد ناصف المعروف.

والخلاصة أن هذه الوفاة قد رسّخت في ذهن الحكومة والدوائر الاجتماعية حقنا في دفن موتانا بمقابر المسلمين، أي أحقيتنا في الذهاب إلى مكة، أما سمعة بيكينين بصفته رجلاً متديناً، فقد عززت هذا الحق. وربما هذا يبدو غريبا بالنسبة لكم ولكنه واقع. من ناحية أخرى التزمنا بالمبادئ الإسلامية في الدفن والجنازة، فلم نضع أي دلالات تظاهر أو أي علامات

مميزة على القبر! وبهذا سيواصل الفقيد تقديم خدماته لنا، أما أسرته فسيكون لها حق الحصول على بعض الإعانات من الدولة".

ومع ذلك ازدادت مشكلة المترجم حدة بوفاة بيكينين، بالطبع لم يكن تيورياقولوف نفسه يواجه صعوبات كبيرة بحكم إتقانه للغات الأجنبية، فقد كتب يقول: "في اتصالاتي بحمزة (وزير الخارجية) لا يزال وسيظل بإمكاني الاستغناء عن المترجم". ولكن عمل البعثة كان يسير في اتجاهات كثيرة، منها على سبيل المثال التعامل مع الصحافة المحلية الذي كان يتطلب مستعربا على درجة من الكفاءة، ولذا نقرأ في مذكرة تيورياقولوف: "والآن ننتقل إلى الحديث عن الأحياء، فنحن بحاجة إلى مترجم. وقد فهمنا من برقية الرفيق أركاديف (هل حل محل مورغونوف؟) أن هناك شخصا مرشحا للعمل مترجماً، ونحن لا نعرف من هو، لذلك رشحت افتراضا الرفيق بِلالوف الذي كان يعمل بإدارة الإعلام قسم الصحافة العربية باللجنة الشعبية للتجارة، وأنا أعرفه من دار النشر المركزية حيث كان يعمل بالترجمة إلى اللغة البشكيرية، كما يعرفه أيضاً أعضاء مكتب تمثيل بشكيريا في موسكو، وصفاته: شاب مجتهد قليل الكلام، ليس عضوا في الحزب، أعزب. إذا لم يكن هناك أي موانع كبيرة ضد تعيين بِلالوف فإننا نرجو العناية بترشيحنا له، لأننا معنيون بالحصول على شخص ذي خبرة. كما نرجو التعجيل بحل هذه المسألة تجنبا لتدهور عملنا الإعلامي في الصحافة".

وفي مطلع عام ١٩٣١م عندما كان يتم النظر في مسألة سفر تويميتوف أقرب مساعدي تيورياقولوف لقضاء إجازته في أبريل، ثم سفر تيورياقولوف

نفسه في الصيف، كان مندوب المفوض قلقا للغاية من أن البعثة لن يبقى فيها أحد من الذين يتقنون اللغات الأجنبية إتقانا جيدا، وقد كتب في هذا الصدد يقول: "... سيبقى ماتيوشكين بمفرده، وهو لا يتقن لا اللغات الأوروبية ولا اللغة العربية بالقدر اللازم. ومن الواضح أنه لا يمكنه البقاء بمفرده إلا إذا وافقتم على إبقائه خلال الصيف كقائم على إدارة البعثة فحسب، دون تكليفه بأي عمل يخص البعثة سواء في الشؤون الوطنية أو في الاتصال بالمجتمع المحلي. وإذا لم توافق اللجنة الشعبية على هذا فعليها أن تفكر في إرسال أحد الرفاق في الوقت المناسب على أن يكون مؤهلا لهذا العمل ويتحدث اللغات الأجنبية ولو الفرنسية والتركية. وأنا أقول لكم هذا انطلاقا من أنكم ربما تفكرون في أخذ أحد من تركيا مؤقتا. وبالمناسبة اتضح أن ماتيوشكين أكثر كفاءة وإدراكا من كاتيشيف وأكثر مما كنا نتوقع، وأتمنى أن يلم بأعمال تويميتوف قريبا، أما بخصوص اللغات الأجنبية فنعتقد أنه لن يبدأ التحدث قبل مرور عام، وكما يقال: (من لسعته الحية يخاف من الحبل)، فكاتيشيف لم يكن يتقن حتى اللغة الروسية، أيضا المستوى الثقافي للشخص له أهمية كبرى، وأنا لدي أمل كبير في ماتيوشكين، وأتمحك على طريقة نطقه فأجبره على نطق كل كلمة عدة مرات زاجا به في بحر اللغة العربية، وهو لا يضجر، وأحيانا يخطئ في القراءة، ولكنه يجتهد دائما في إخراج «العين» و«الضاد» وما أشبه ذلك. أدعو الله ألا أكون مخطئا في تقديري، والمستقبل كشاف".

بعد وصول ماتيوشكين جرى في البعثة إعادة توزيع للمهام، وكان من المفترض أن يعمل هذا من ناحية على تيسير الأمور، ولكنه من ناحية أخرى

أضاف المزيد من الأعباء. "فتويميتوف يجذب الرفيق ماتيوشكين تدريجيا إلى الإلمام بالأعمال التي كان يقوم بها، حيث يعدّه للاضطلاع بكافة مهامه (المهام القنصلية والحسابات وشؤون المقر وغيرها)... وقد تم تعيين ماتيوشكين سكرتيرا للبعثة براتب مترجم لأن الإمكانات المتاحة لدينا لا تسمح لنا بحل هذه المسألة بشكل آخر. والرفيق تويميتوف ينوي السفر في أبريل، وذلك انطلاقا من أنه أولا لا يمكنه العودة إلى الاتحاد السوفيتي في الشتاء بعد أن قضى فترة طويلة في بلد حار، وثانيا لأن البعثة في حاجة إليه في الوقت الحاضر، ولذلك قررنا تغيير راتب الرفيق ماتيوشكين إلى راتب سكرتير بعد سفر الرفيق تويميتوف. ولكن الرفيق ماتيوشكين يطلب الآن تعيينه براتب سكرتير، مستندا في ذلك إلى القرار الإداري الصادر بتعيينه في وظيفة مدير شؤون. أرجو النظر في هذه المسألة وإعطاءنا تعليمات قاطعة مع رجاء تأكيد موافقة اللجنة الشعبية. واستنادا إلى هذا يتعين على اللجنة التفكير في إرسال عضو جديد مناسب بحلول شهر أبريل حتى لا تبدو البعثة خالية بعد سفر تويميتوف وتيورياقولوف".

كان العجز في الكوادر المؤهلة يجبر تيورياقولوف على ألا يقتصر عمله على مهامه المباشرة، وإنما يتعداها إلى ترشيح الموظفين وإعداد البدائل، فنراه يكتب إلى موسكو: "استنادا إلى قلة كوادر المستعربين في موسكو أرى ضرورة أن نتجه إلى نظام الإيفاد في مهمات تدريبية لحل المشكلة القائمة لدينا، حيث يمكن إيفاد أحد خريجي معهد الدراسات الشرقية أو طلاب السنوات الأخيرة به في مهمة تدريبة للعمل في جدة، وفي الوقت نفسه يتم تأهيل المتدرب

للعمل في الوكالات والبعثات مستقبلا، وبهذه الطريقة يمكننا توفير مجموعة كبيرة من الكوادر التي تتقن اللغة العربية ليس من الناحية النظرية فحسب وإنما من الناحية العملية أيضا.

فإذا تحدثت هنا باللغة المكتوب بها القرآن فلا تستطيع حتى أن تشتري علبة كبريت من السوق، ورغم ذلك فجامعاتنا ومعاهدنا لا تخرج مستعربين وإنما - نقول مجازا - متخصصين في علوم القرآن غير قادرين على التخاطب إلا مع الأموات والملائكة. إلى جانب ذلك فإن الإيفاد في مهمات تدريبية من شأنه أن يشجع على إقبال الطلاب على قسم اللغة العربية، إذ أن هذا يضمن لهم فرص العمل في المستقبل بشرط توافر قدرتهم على العمل، وفي هذه الحالة لابد من الحد من عدد الطلاب بالقسم العربي في معاهدنا بحيث يكون في حدود المطلوب تجنبا لحدوث «فائض في الإنتاج».

وهناك بالتأكيد مستعربون أقوياء - كأكشورين مثلا - تخرجوا في معهد ناريمانوف ويعملون في اللجنة الشعبية للتجارة في غير تخصصهم، بعد أن أنهوا دراستهم في القسم العربي بامتياز، وبالمناسبة أوجه انتباه سيادتكم إلى الرفيق أكشورين أيضا لترشيحه للعمل كمترجم، فإلى جانب مستواه الجيد في اللغة العربية هو مؤهل أيضا للعمل بالشئون الاقتصادية، وإتقانه للغة الروسية لا غبار عليه مما يمنحه أفضلية على بِلالوف، والمرحوم بيكينين لم يكن لايعرف الروسية فحسب وإنما أيضا لم تكن لديه رغبة في تحسين وتعميق معارفه في هذا المجال، مما كان يضطرنا إلى الترجمة من لغة بيكينين الروسية إلى اللغة الروسية الفصحى، وكان هذا يضيّع وقتا كبيرا عند إعداد المواد الإعلامية لموسكو".

ولكن كانت هناك حالات في عمل البعثة كان رحيل «المترجم العظيم» فيها بمنزلة رحمة من الله بالنسبة لأعضاء البعثة، ومن بين هذه الحالات ما حدث مع المترجم كاتيشيف، فبعد رحيله إلى أرض الوطن كتب تيورياقولوف إلى موسكو متنفسا الصعداء: "... إنني سعيد بأننا بعد رحيل كاتيشيف وأسرته ومجيء إنسان هادئ الطباع أصبحنا نعيش في هدوء بعد الفضائح التي لايمكن أن تراها إلا في ساحات المحاكم الشعبية في موسكو، وكنا نلتزم الصمت. أف!، أنا حتى لم أكن أستطيع أن أوجِّه له ملاحظة، فأول وآخر ملاحظة مني لكاتيشيف كانت بأن الرقص حتى الصباح وإحداث ضجيج... بينما يجلس ضيوف غرباء تحتهم (وهو ما كان يحدث بالفعل) هو شيء غير لائق، وكانت النتيجة أن اتهمني كاتيشيف وزوجته بالبيروقراطية... إلخ، حتى أن الحديث وصل إلى حد الدموع التي كانت تُذرَف في أي لحظة. أيضا كنت مضطرا لالتزام الصمت عندما ضرب كاتيشيف زوجته ضربا مبرحا وراحت تصرخ وتستغيث. بعد هذا يبدأ الإنسان في التعامل مع كل شخص جديد بارتياب. إنني أروي لكم كل هذا لا لشيء إلا لأؤكد على أهمية الدقة في انتقاء الموظفين من جميع النواحي".

كذلك كانت هناك مشاكل في الخدمات الطبية بالبعثة، ففي السنوات الأولى كان يلجأ أعضاء البعثة في أي مشكلة تواجههم إلى أي اختصاصي متاح، وأحيانا كانت زوجة تيورياقولوف تنقذ الموقف حيث إنها كانت تحمل شهادة الطب، غير أن هذا لم يكن ضمن اختصاصاتها المباشرة، ولذا كان لابد من طلب إيفاد اختصاصي من موسكو. وجاءت وفاة بيكينين لتكون على حد ما

كتبه تيورياقولوف "دليلا محزنا على وضعنا الصعب. وأنا شخصيا لا أنوي المرض، ولكني أرى من الضروري والمفيد وجود طبيب بالقنصلية لعلاج أعضاء البعثة وأفراد الجالية السوفيتية في المقام الأول". أما فيما يخص الشروط التي أرى ضرورة توافرها في هذا الشأن فهي أن يكون الطبيب (أو الدكتور) له خبرة في مجال تخصصه وأن يكون رجلا بين الخامسة والثلاثين والخامسة والأربعين، ويفضل أن يكون مسلما، وإذا كانت لديه زوجة تمارس الطب أيضا فهذا أفضل. وفي الوقت الراهن تقوم بعلاجنا الطبيبة (اليونانية) Petridis والدكتور الهولندي الجاوي الأصل عبد الفتاح (الذي كان يعالج بيكينين)، وهذه مسألة غير مريحة بالمرة. أضف إلى ذلك أن الأهالي هنا يتساءلون إذا كان سيتوفر لدينا هنا طبيب أم لا، ورغم أن الرفيق تويمتيوف يرى أنه من الأفضل التوقف عن استقبال المرضى للعلاج بالعيادة تجنبا «للأقاويل» كما كان يحدث في الماضي إلا أنني أظن أنه من الممكن بل والمفيد بالنسبة لمصالحنا المشتركة أن نواصل استقبال المرضى من الرعايا السوفييت للعلاج وعدم حصر نشاط طبيبنا داخل جدران القنصلية. وفي الوقت الحاضر نقترح دعوة زوجة الدكتور باباجان للعمل موظفة محلية، وهي من المفترض أن تصل قريبا على الباخرة « لوسيا» وتبدي موافقتها على العمل لدينا على حد ما ذكره الرفيق حكيموف، وقد وصلتنا بالبرق موافقة الرفيق أركاديف بهذا الخصوص. وبشكل عام أنا أفضل أن يكون لدينا هنا في الوكالة سيدة أخرى ولو بصفة طبيبة، وإذا توخّيتُ الحذر الشديد في هذا الشأن لن يكون هناك ضرر علينا. وأنا أقول هذا انطلاقا من الثقافة والتقاليد المحلية السائدة هنا.

وهكذا نجد تيورياقولوف يطرح مرارا وتكرارا مسألة إيفاد طبيب وليس طبيبة انطلاقا من التقاليد المحلية وليس بسبب «كراهيته للمرأة» بتاتا، حيث نراه يقول: "مازالت تعمل لدينا الطبيبة تيفيل (باباجان)، وهي تعمل موظفة محلية، وأنا مازلت أتمسك بوجهة النظر «الإسلامية» بأنه يفضل رغم ذلك أن يكون لدينا طبيب وليس طبيبة، صحيح أن طبيبتنا تؤدي عملها جيدا، ونالت شهرة بين نساء المجتمع، فهي تقوم يوميا بالكشف على نحو ٢٥ - ٣٠ مريضا. وانطلاقا من مبدأ الحرص تقوم بناءً على نصيحة منا بإرسالهم إلى الأطباء الآخرين (السوريين) حتى لا يشكو في أنها «تختطف» المرضى. والأهالي هنا راضون تماما، ورغم ذلك أرجو منكم المساعدة في تبديلها برجل. وقد عرفت بطريقتي الخاصة أن موضوع الدكتور موشكوفسكي قد لاقى صعوبة، وإذا كان هذا صحيحا فإنه أمر يدعو للأسف. ألا يمكن التعجيل بحل هذه المسألة بالشكل الذي نبغيه؟".

وأخيرا استجابت الإدارة لإلحاح تيورياقولوف في الطلب، وقبيل عام ١٩٣٠م غادر إلى الحجاز - «برفقة البريد» -"الطبيب موشكوفسكي (وهو عالم على درجة عالية من التأهيل متخصص في أمراض المنطقة الاستوائية) للعمل بالأبحاث العلمية في المقام الأول ومساعده الطبيب ناخاشفيلي للمساعدة في العمل والتدريب الإكلينيكي بشكل أساس. ورغم أنكم لم تخبرونا حتى يومنا هذا بشأن التأشيرة الخاصة بناخاشفيلي فإننا نأمل في أن تتمكنوا من الحصول عليها، وإلا سيتعين عليه السفر لفترة إلى الحُدَيّدة والانتظار هناك لحين الحصول على تأشيرة للقدوم إلى الحجاز".

وفي مذكرة التغطية اقترحت اللجنة على تيورياقولوف الاستفادة من عمل الأطباء الجدد لتعزيز الصلات مع الدوائر السياسية المحلية، خاصة وأن هذا النهج قد أثبت فاعليته من قبل.

ولهذا تم إرسال خطاب بالبريد "من الرفيق سيماشكو رئيس اللجنة الشعبية للصحة إلى وزير الصحة بالحجاز (وإذا لم يكن هناك وزير للصحة فيمكن تسليم الخطاب إلى الهيئة المختصة بهذا المجال). ونظن أنكم ستستغلون هذا الخطاب لإنشاء علاقة عمل بين الرفيق موشكوفسكي والسلطات الحجازية، ونحيطكم علما أن عيادتنا في صنعاء وخاصة الدكتور باباجان تؤتي ثمارا طيبة، وقد تحولت إلى إحدى قنوات نفوذنا السياسي والثقافي. واللجنة الشعبية للصحة معنية للغاية بالأعمال العلمية للرفيق موشكوفسكي، حيث إن نجاحها سيتوقف عليه مواصلة النشاط الطبي في الحجاز، فعمل الرفيق موشكوفسكي لابد بالفعل أن يكون له أهمية علمية كبرى. ولكل هذه الأسباب نرجو منكم تهيئة كافة الظروف الممكنة لعمل الرفيق موشكوفسكي مع الأخذ في الحسبان احتياجه لناخاشفيلي بصفته أقرب مساعديه".

لقد انفتح أمام موشكوفسكي مجال واسع للعمل في المملكة العربية السعودية، وذلك بحكم تخصصه في الأمراض البكتريولوجية، حيث استطاع كعالم ومتخصص في الملاريا أن يقيم علاقات عمل مع المسؤولين عن الشؤون الطبية في الحجاز وكذلك الأطباء الذين ساعدهم كثيرا في بدء العمل بالنشاط البكتريولوجي في جدة، كما كان موشكوفسكي طبيباً يتمتع بمكانة

كبيرة لدى الحجازيين، فقد كان يعالج الأمير فيصل وغيره من الشخصيات البارزة من الملاريا، كذلك كانت البعثات الأجنبية تتعطش للاستفادة من خدماته، بيد أن علاقاته كانت أقوى ما يكون مع الهولنديين. وقد كتب تيورياقولوف يقول: "ولكن جدوى عملنا الطبي قد تكشفت للحجازيين بشكل خاص بعد المحاولات التي قام بها الجانب الإيطالي لإعلان خطر انتشار الكوليرا خلال موسم الحج وذلك بسبب ظهور حالة إصابة غامضة. وقد عرض الدكتور موشكوفسكي خدماته على الحجازيين وأجرى عددا كبيرا من التجارب التي أثبتت أن الحجاز خال من الكوليرا".

ومن الواضح أن إسهامات أبحاث موشكوفسكي البكتريولوجية في إثبات خلو الحجاز من الكوليرا، وكذلك التفسيرات والتوضيحات حول سير أعماله التي كان يصرح بها -بعلم تيورياقولوف- لبعض الدبلوماسيين (ريان وميغريه وغيرهما)، كل هذا -كما كتب المفوض السوفيتي- قد "هدأ من انشغال الطليان بموضوع «الكوليرا» وهم الآن يتراجعون أمامنا. وبالمناسبة أقول: إن التكتيك الذي كان يتبعه الأستاذ الدكتور موشكوفسكي بناءً على تعليمات مني يتلخص في حصر نشراته ما أمكن في إطار مواد أبحاثه سواء كانت هذه النشرات كتابية (للحكومة الحجازية) أو شفهية (للأجانب والدكتور صالح مندوب المجلس الدولي للحَجْر الصحي الذي كان يتابع عن كثب أعمال طبيبنا). بعبارة أخرى تجنب طبيبنا إلقاء الظل على النشرة القادمة من مصوّع رغم أن نتائج أعماله، على الأقل في منطقة الحجاز وحدها، قد ألقت بظلال الشك على صحة وشرعية إجراءات الحَجْر التي يتخذها المجلس والتي ترتكز

في المقام الأول على التقارير الإيطالية، وهو ما ينبغي استنتاجه من تصريح الجنرال ديوغيه كبير مفتشي المجلس".

في «قضية الكوليرا» كان تيورياقولوف غالبا ما يتصرف على مسؤوليته الخاصة، ولم يتجرأ على الاحتجاج على إدارته إلا بعد أن بدت بوادر نجاحه في هذا التصرف، إذ أرسل يقول: "... إننا لم يكن لدينا ولا يزال أي تعليمات بخصوص السلوك الذي كان يجب أن نسلكه في قضية الكوليرا، حيث كنا نتصرف طبقا لما يمليه علينا عقلنا، وهذا بالطبع أمر غير مقبول. ونرفق طيّ هذا الخطاب مذكرة خاصة تتعلق بهذا الشأن أيضا، ستجدون فيها كافة ما يخص تصوراتنا عن وضع القطاع الطبي التابع للبعثة. وبالمناسبة أرجو أن تحركوا اللجنة الشعبية للصحة ومكتب الإعلام الخارجي وأن ترجوهما الاهتمام بشكل أكبر بتوسيع الاتصالات معنا، فالأمر يتطلب أن يشعر أطباؤنا هنا بأنهم دائما تحت نظر موسكو، ومع ذلك فموشكوفسكي ليس لديه أي تعليمات، والأمر ينتهي عند المعلومات الخاصة والخطابات. إلى جانب ذلك لابد من منح الأطباء الإجازات والعطلات في موعدها حتى لا ينفر الآخرون إذا استدعى الأمر البحث عن موظفين جدد للعمل في جدة. وموشكوفسكي حتى الآن لا يعلم ماذا سيكون بعد، وهذا لا يسمح له بوضع برنامج ثابت لعمل القطاع الطبي الذي يُعد -مع ذلك- جزءًا شبه قانوني من البعثة".

لاشك أن تيورياقولوف قد تمكن من أن «يظفر» بخبير على أعلى مستوى وهو الأستاذ الدكتور موشكوفسكي، والدليل على ذلك هو على الأقل تلك الثقة والاحترام الذي كان يكنّه له مندوبو هولندا التي لم يكن لديها في ذلك الوقت

علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي. وقد كتب تيورياقولوف: "رغم أن الهولنديين يعدون بشكل عام «إمعة» للإنجليز، فإنهم في بعض المسائل كمسائل الحَجْر مثلا لا يبدون دائما تضامنا مع الإنجليز كما هو واضح من تقارير الدكتور موشكوفسكي. والعلاقات الشخصية والثقافية بيننا وبين البعثة الهولندية جيدة تماما، فقد تكرّم فان ميولين وسمح لموشكوفسكي باستخدام ما يلزمه من الوثائق الرسمية والتقارير في أرشيف البعثة الهولندية. وبدوره قام موشكوفسكي بدعوة من فان ميولين وبعد موافقتي بعلاج المرضى من أبناء جزيرة جاوة الذين يخدمون في البعثة، كما قام بعمل دراسات علمية على باخرة هولندية كان على متنها مرضى يُشْتبَه في إصابتهم بالعدوى، كذلك يقوم بتدريب طبيب البعثة الجاوي الأصل عبد الفتاح على بعض الطرق الحديثة في العمل بالدراسات البكتريولوجية، ويتبادل معه الأخبار العلمية. ورغم عدم وجود علاقات رسمية بيننا فإن فان ميولين حريص على المحافظة على العلاقات الودية «التقليدية»، وقبل سفره (في يوليو) في إجازة جاء إلينا في زيارة وداع وفي حواره معي أفاد بأن وزارة الخارجية الهولندية توصيه في تعليماتها بأن يحافظ على أفضل العلاقات الشخصية معنا". وهكذا كان الطب يساعد على مد الجسور الدبلوماسية...

وبناءً على هذا ظهر لدى نذير تيورياقولوف المزيد من التصورات والأفكار بشأن تعزيز العلاقات السوفيتية السعودية، وسارع بإبلاغ رؤسائه بها، حيث كتب في أحد خطاباته يقول: "لقد توصلت إلى استنتاج مؤداه أنه يتعين على موشكوفسكي تطوير علاقاته مع الحكومة الحجازية من خلال عمله، ولهذا

الغرض سيقوم موشكوفسكي في هذا العام بالعمل في موضوع «الكوليرا» مرة أخرى. وقد حدد (لنفسه) مهمة القيام بفحص مصادر المياه التي ربما تكون - على حد افتراضاته- مصدرا لجراثيم الكوليرا، ولكن هذه مهمة علمية بحتة، ورغم وجود الظروف المواتية لموشكوفسكي فإننا استطعنا أن نعطيه دفعة للأمام ليشغل المركز الذي يليق به ويجبر الجميع على الاعتراف بمكانته، فقد بدأ منذ فترة قريبة في علاج الأمير فيصل (من الملاريا)، والأجانب يتساءلون في تلهف متى سيرحل موشكوفسكي من المملكة. وأنا كنت مرنا مع المبعوثين الأجانب، فبناءً على طلب مني وفي حضوري قام موشكوفسكي في مقر بعثتنا بالإدلاء بتفسيرات علمية للسفير الإنجليزي ريان وللطليان مع إبلاغ الحكومة الحجازية بذلك، والحكومة راضية عن نتائج عمله، ففي الآونة الأولى كانوا يتوجسون خيفة، ولكن المعاملة الحسنة أثبتت أننا لا ننوي أن نخذل الحجازيين، وفي هذا العام أعتقد أن الأمر سيكون أفضل وسيكون هناك اتصالات وثيقة".

وعند سفر موشكوفسكي توجه الدكتور محمود مدير الصحة بالحجاز إليه برسالة أشار فيها أن الحجاز ستظل تتذكر دوما عمله القيم، وأعرب عن عميق الشكر له.

ومع ذلك لم يدم إيفاد الأطباء طويلا، ففي نهاية ديسمبر عام ١٩٣٠م غادر ناخاشفيلي جدة عائدا إلى أرض الوطن، وبقي الأستاذ الدكتور موشكوفسكي بمفرده، وكان على حد ما جاء في مذكرة تيورياقولوف "يتعصب كثيرا بسبب البلبلة التي تحدث في موضوع الشقق في موسكو، فلابد من

مساعدة أفراد أسرته (أخته) ما أمكن ليحافظوا له على حقوقه، ويفضّل لو كتبتم له كلمتين لتهدئته بهذا الصدد". وفي الوقت نفسه أبلغ تيورياقولوف موسكو بأنه "بعد موسم الحج لن نبقي على موشكوفسكي أو بالأحرى لن نستطيع الإبقاء عليه! وإذا أردتم تقليص عملية تبديل الأطباء فابعثوا بمن يحل محلّه في الوقت المناسب (ولو بحلول شهر مايو). وأرجو أن تنتبهوا لهذه المسألة، فنحن لن نكتب بصددها مرة أخرى". ولكن للأسف لم تلق دعوة تيورياقولوف استجابة، وتوقف النشاط الطبي مع سفر موشكوفسكي لأنه رغم كل الإصرار و"الخطابات الخاصة التي أرسلها الرفيق كاراخان إلى الرفيق فلاديميرسكي في العاشر من يونيو لم تتمكن اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية من اختيار طبيب مناسب للعمل في جدة"، ولم يتم هذا الموضوع إلا في نهاية العام عندما أمكن استخراج المستندات اللازمة للطبيب فيلينسكي والطبيبة كودلايفا وغادرا إلى الحجاز في السادس والعشرين من يناير عام ١٩٣٢م ولكنهما لم يمكثا هناك طويلا، وربما كان هذا لحسن الحظ كما أثبتت الأيام فيما بعد، فرغم المدة القصيرة التي قضاها فيلينسكي في العمل في جدة إلا أن هذا كان كافيا ليلحق أضرارا بالغة بسمعة وممتلكات العيادة التابعة للبعثة.

ولكن تيورياقولوف لم يكلّ من محاولة إقناع إدارة اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية بضرورة إنشاء عيادة دائمة تتبع البعثة، حيث كتب يقول : "في الخامس عشر من يوليو ١٩٣٣م وصل الدكتور جوكوف خوفانسكي، وفي السادس عشر منه بدأ مباشرة العمل الذي اقتضت الضرورة أن ينحصر في البداية في ترتيب

العيادة وحصر ممتلكاتها. وجدير بالذكر أننا قبل وصول الدكتور جوكوف خوفانسكي قمنا بعمل أيام «خدمة عامة» للقيام ذلك، ولكن هذا لم يكن كافيا بالمرة للاطمئنان على أحوال العيادة، وقد قام ولا يزال الدكتور جوكوف بالقدر الأكبر من العمل لتنظيف العيادة التي أصبحت تشبه «مقلب القمامة»، وهذا العمل لم ينته حتى الآن، ويمكنكم عمل تصور أكبر عن هذا الموضوع من التقرير الخاص بحالة العيادة الذي يعده الدكتور جوكوف بنفسه. كل هذا يسمح بعمل استنتاج عن الحالة المزرية التي ترك فيلينسكي العيادة عليها".

كان يتعين على تيورياقولوف الدخول في التفاصيل لأنه هو الوحيد الذي كان يتوقف عليه موافقة موسكو على تقديم المساعدات المالية التي كانت تتطلبها العيادة، ناهيك عن ظهور عجز مبتذل للغاية بعد سفر الفريق الطبي السابق الذي كان يتعرض لشكاوى عديدة حتى أثناء عمله. وقد كتب تيورياقولوف في هذا الصدد يقول: "إننا في حاجة لهذا العمل أولا لأنني لابد أن أعرف بالضبط الشكل والحجم الذي ينبغي مساعدة العيادة به (من أدوية ومعدات وتجهيزات)، وخلال أعمال الجرد تبين أنه بالرغم من قيام فيلينسكي بتسريب بعض الأدوية المسجلة من العيادة (ويجري الآن التحقق من هذا وسنخبركم به من خلال العاملين في البواخر) فإنه لا يزال لدينا اكتفاء في بعض المستحضرات الطبية، صحيح أن هناك عددا من الأدوية التي تُعد العيادة في أشد الحاجة إليها، ولا يمكننا الحديث عن هذا كله بالتحديد إلا بعد الانتهاء من جرد كافة متعلقات العيادة، وهذه هي المهمة الأولى التي نأمل أن نتمكن من حلها في سبتمبر".

وسعيا وراء المزيد من تعزيز مكانة السوفييت في المملكة كان تيورياقولوف يرى ضرورة مواصلة التحرك من خلال الأطباء الذين كان يذيع صيتهم في الحجاز يوما بعد يوم، ولذا طرح فكرة إنشاء معمل خاص السوفييت، حيث بعث يقول: "الأشياء الأساسية -الميكروسكوبات والقاعدة العلمية- موجودة، فقط يحتاج الأمر إلى مساعدة بسيطة من جانبنا والمعمل يصبح جاهزا". والسبب وراء هذا الاهتمام الكبير من قبل تيورياقولوف بإنشاء المعمل كان يرجع إلى عدم إمكانية قيام العيادة بعملها على مستوى مهني بمعنى الكلمة إلا بوجود مثل هذا المعمل.

ومع ذلك "فالنشاط المعملي في المملكة يعد حِكْرا على الطبيب الهولندي والطبيب الأنجلوهندي الذي لا يفقه شيئا في هذا المجال، ولا داعي لأن نعتمد عليهم ولو بصورة غير مباشرة، ومؤسسات الصحة في الحجاز ليست قادرة بعد على إنشاء معمل خاص بها". وفي الختام كان آخر المهام التي طرحها المندوب السوفيتي هي "وضع لائحة لتنظيم عمل القطاع الطبي بالبعثة...".

ونال تيورياقولوف مكافأة على إصراره، حيث أرسلت موسكو إليه طبيبا اتضح أنه خبير على درجة عالية وأثبت ذلك من أول يوم، وبفضله ظفرت البعثة بمكانة كبيرة وشكر من أهالي البلاد. وقد كتب المندوب السوفيتي بشأنه يقول: "بالطبع بدأ الدكتور جوكوف الكشف على المرضى بعد أسبوع من وصوله، وهو يعمل من الثامنة صباحا حتى الواحدة ونصف بعد منتصف الليل، وانطلاقا من سمات المجتمع هنا قررنا العمل بالنظام التالي: يوم للكشف على الرجال ويوم للنساء، والكشف يتم بتذاكر (حسب الدور)، أما

الأطفال فيجري الكشف عليهم خارج الدور، والآن يتم الكشف على نحو ٣٠ - ٤٠ مريضا في اليوم، ومنذ وصوله حتى الآن قام الدكتور جوكوف بالكشف على نحو ٧١٠ مرضى. ومن بين المظاهر المستجدة أشير إلى أن عيادتنا تخدم تقريبا كل أفراد الحامية العسكرية بالمدينة (ومعظمهم من النجديين)، والجنود النجديون يقولون عن طبيبنا: doxtur albalshefik zayin»» وعندما يُعرض عليهم التوجه إلى دكتور الحكومة يردّون بالرفض".

كان غالبية السكان يعانون من الملاريا والرمد الحبيبي (التراخومة) وأمراض الأطفال وأمراض النساء والأمراض الزهرية، وكانت أكثر الطبقات تعرضا للأمراض هم الفقراء والتجار والجنود ورجال الشرطة والموظفون، وكثيرا ما كان يلجأ الأجانب أيضا إلى العيادة السوفيتية، وقد ازداد توافد المرضى مما دعا تيورياقولوف إلى إدخال نظام سداد قيمة العلاج، حيث يقول: "إننا نحاول تحصيل ولو قيمة رمزية مقابل الأدوية، أما المرضى الأغنياء فنحاسبهم بأسعار أعلى، وقيمة الكشف المنزلي جنيه واحد.

وسيتم إدراج موضوع تجهيز منزل الطبيب من دخل الكشف المنزلي في اللائحة التي سنقوم بإرسالها إلى الإدارة في حينه. وحتى الآن دخل العيادة ضعيف للغاية، وبدون مساعدة منّا لن تقف على أقدامها. وإذا كانت العيادة من الناحية الشكلية تتبع اللجنة الشعبية للصحة فهذا لا يمنع من أن أعتبرها جزءًا من كياننا يؤدي وظيفة محددة، وبناءً عليه قمت باستغلال ما أوفّره من الموارد الداخلية للبعثة في تنفيذ كافة الأعمال المستعجلة واللازمة لتحسين ظروف العمل بالعيادة (من طلاء للحوائط وأرفف جديدة بالمخزن وأثاث

وأحواض غسيل)، علاوة على أنني عيّنتُ من هذه الموارد موظفا عربيا (وهو رجل ذو فطنة ومجتهد للغاية) للعمل بالعيادة (مع تسجيله شكليا على قوة البعثة)، كما اشتريت في مكة مستلزمات جديدة للصيدلية بأسعار زهيدة من صيدلي تركي أعرفه يدعى Sokasun".

إن نشاط العيادة السوفيتية في ظل تدني مستوى مؤسسات الصحة في الحجاز قد أسهم إسهاما ملحوظا في الدعاية للسياسة الخارجية للدولة السوفيتية وترويج منجزاتها، وكان تيوریاقولوف يدرك أن الفضل الأول في ذلك يرجع إلى الدكتور جوكوف خوفانسكي ولذلك لم يخف إعجابه بهذا الرجل الخبير، وكان يهتم كل الاهتمام بظروف حياته اليومية، إذ كتب لرؤسائه في هذا الصدد يقول: "... لقد أعلنت للدكتور جوكوف أنني سأقدم له دائما المساعدة في حدود ما تسمح به إمكاناتي لكي يتم تنظيم عمل العيادة كما يجب ولكي يتمكن من إظهار كل قدراته العلمية، وهو راض أيضا للغاية عن أحوال وظروف العمل، وأنا أرى أنه يتعين علينا مساعدته ثم بعد ذلك نطالبه، ونبقي عليه في هذه الوظيفة مدة أطول، فالأطباء المتجولون مدة عام يضرّون ولا ينفعون، لأن الطبيب عندما يقضي في العمل فترة أطول فإنه يدرس اللغة والناس وأحوال المعيشة... إلخ، وبناءً عليه أحاول تلبية طلبات الدكتور جوكوف إلى أقصى درجة لكي نثبّته معنا فترة طويلة.

وهناك مسألة مهمة أخرى وهي بخصوص راتب الدكتور جوكوف، فالعقد ينص على راتب قدره ١٩٠ دولار أمريكي، ونتيجة لهبوط سعر الدولار يخسر الدكتور جوكوف شهريا ما يصل إلى ١٠٠ روبل ذهبي، وإذا أخذنا في الاعتبار

حجم راتبه وغلاء الأسعار هنا (حيث نأكل ونشرب سلعا مستوردة في الغالب) فإن هذا المبلغ يُعد خسارة كبيرة بالنسبة له، ولذلك لابد من السعي بكل الطرق لتغيير هذا الوضع، وقد تقدم الدكتور جوكوف بطلب في هذا الشأن (مرسل إليكم صورة منه)، وأرجو من الإدارة ومنكم التكرم بدعم طلبه".

كذلك كان تيورياقولوف ينجح بهذه الطريقة في حل العديد من المسائل سواء السياسية أو المعيشية، أما على الساحة الدبلوماسية البحتة فكان ينافس بنجاح بالغ المندوبين الغربيين الذين كانوا يفوقونه في الخبرة بدرجة كبيرة، فلكي يقاوم بيروقراطية الموظفين بفاعلية في ظل الروتين اليومي كان لابد أن تتوافر فيه الخصائص الفطرية للسياسي الماهر، أما إلمامه بواقع البلد الذي يعمل فيه فقد ساعده على تجنب الأخطاء المزعجة، ليس هذا فحسب وإنما أيضا نيل احترام الصفوة المحلية وزملائه الدبلوماسيين.

كما نرى، رغم رتابة العمل اليومي المليء بالمشاكل والهموم كان تيورياقولوف يتميز حقا بسعة الأفق في معالجة كل ما كان يصطدم به في عمله الدبلوماسي، فقد كان يدرك جيدا كافة دهاليز التصارع الدبلوماسي ليس في الشرق الأوسط فحسب وإنما على الساحة الأوروبية والعالمية أيضا، فتركيزه على النتيجة النهائية في الدفاع عن المصالح القومية لدولته، وفطنته، ونشاطه الذي لا ينضب، وطموحه القوي، ومهارته وولعه بالعمل، كل ذلك جعل من تيورياقولوف شخصية بارزة في تاريخ الدبلوماسية السوفيتية.